القيم الاجتماعية قبل الإسلام

بقلم الدكتور محمد النويهي

فخر الحادرة بوفاء قومه في بيتيه الماضيين (*) ، وقد اتخذنا من فخره ذاك مجالا لدراسة تاريخية اجتماعية حققنا فيها نصيب الجاهليين من الوفاء والغدر . ونريد ان نستمر معه ، متبعين نفس المنهج ، حين ينتقل في بيته التالي الى الفخر بكرمهم اي سخائهم بالمال في الشطر الاول ، وببلائهم في الحروب في الشطر الثاني :

ونقي بآمن مالنا احسابنا ونجر في الهيجا الرماح وندعي

ان السخاء اكبر صلة بما كان فيه من فخر في بيتيه الماضيين. فكما ان ان السخاء اكبر صلة بما كان فيه من فخر في بيتيه الماضيين . فكما ان قبيلته تحرص على سمعتها الطيبة ان تشوبها شائعات الغدر ، فتكف طمعها في الاستيلاء على مال الحليف ، كذلك هي تحرص على الاحتفاظ باحسابها ، فتحميها ببذل مالها النفيس . واحساب القبيلة ما تكتسبه لاسمها من ذكر حميد باعمالها المجيدة ، بينما الانساب هي موضعها السلالي من تفرعات القبلية العربية . وواضح ان القبيلة لا يد لها في هذه الانساب ، فهي لا تستطيع ان ترتفع بنسبها اذا كان وضيعا بمعايير الانساب الجاهلية ، اي اذا لم تنتم الى جماعة من الجماعات التي كانوا يعدونها شريفة النسب . وقد بلغ من ايمانهم بالنسب ان اعتقدوا ان النسب الوضيع ، او اللئيم كما سموه ، لا يزكيه عمل مهما يكن حميدا. ومن هذا تدرك انهم قبل الاسلام كانوا يؤمنون بارستقراطية مسرقة تساوي في اسرافها الارستقراطية الانجليزية في العصر الفكتوري، حين كان الانجليز يؤمنون ان بعض الدماء زكية او « زرقاء » بطبيعة وراثتها، وان من ولد من العامة لا يصير ابدا الى ان يكون من الاشراف ، حتى قالوا ان الملك يستطيع ان يمنح الالقاب ولكنه لا يستطيع ان يجعل من الشخص العادي « جنتلمان » .

ومن هذا تدرك ايضا ان من ابعد الاشياء عن الصحة ان ننسب الى الجاهليين اي ايمان بالديمقراطية الصحيحة . ويجب علينا في هذا المجال الا نخلط بين الديمقراطية الصحيحة ـ وهي التي تنبع من ايمان عميق بان الناس متساوون في قيمتهم الانسانية ، وان لكل منهم حقا متساويا في الحياة الكريمة ـ وبين التقارب في الحالة الاقتصادية الذي فرضته على معظم الجاهليين طبيعتهم الصحراوية الشحيحة القاسية ، كما يجب الا نخلط بين الديمقراطية وبين الفوضى او شبه الفوضى التي شاعت بين القبائل ، والتي جعلت البدو شديدي الرعونة كثيري الشغب نافرين من الخضوع للحكم والسلطان . فهم برغم ذلك كله قد آمنوا وسلموا بان بعض الناس بطبيعة ميلادهم اشرف من سائرهم ، وظلت تلك عقيدتهم الارستقراطية حتى جاء الاسلام يحاربها كما حارب معظم قيمهم الجاهلية ، ويعلمهم ان المرء بعمله لا باصله ، فلم تلق منهم هذه القيمة الجديدة قبولا كبيرا اول الامر ، واحتاجت الى زمان طويل قبل ان يقتنعوا بها . استمع الى قول عمرو بن معديكرب في ديوان الحماسة :

ليس الجمال بمئزر فاعلم وان رديت برد

ان الجمال معادن ومناقب اورثن مجدا

وهو يعني بالمعادن الطبائع الشريفة التي يرثها الرجل الشريف عن آبائه الاشراف . فهذا الشاعر الاسلامي لا يكتفي بالمناقب ، وهي الاعمال الحميدة التي يقوم بها الفرد ، بل يصر على المعادن ايضا قبل ان يسلم لفرد بالمجد ، بل المناقب نفسها لا بد ان تكون متوارثة من الاباء !

لكن حتى اذا كانت القبيلة ذات نسب شريف فانها يجب عليها ان تدعمه باعمال مجيدة ، والكرم من اهمها . وكلما كان علو نسبها كانت حاجتها الى ان تؤكده بالقيام بمستلزماته وواجباته ، من اكرام الضيف، ومعونة المحتاج ، وحمل الحمالات اي الديون والديات التي لا يستطيع غارموها اداءها ، وسائر الواجبات التي عددوها والزموها ساداتهم . فالحادرة يفخر بان قومه يحمون احسابهم ببذل آمن مالهم ، وآمن المال بكسر الميم هو المال الخالص الشريف الذي آمن لنفاسته ان ينحر ، اي الابل والخيل التي يبلغ من جودة سلالتها انهم لا يذبحونها ، وكان العرب يحتفظون بشجرات الانساب لابلهم وخيلهم العتاق . فان قرأت آمن بفتح الميم كان افعل تفضيل ، اي اوثقه في نفوسهم ، فيكون وصفا لعاطفتهم نحو هذا المال من الاعزاز ، وهم لا يعزونه الا لشرفه وجودة سلالته .

وهذا يضطرنا الى ان نناقش مسألة كرمهم اي سخائهم بالمال كما ناقشنا مسألة وفائهم . وهنا ايضا يتوقف الامر على طريقة فهمنا لدلالة الشعر ، اما الصورة الشائعة فتدعي ان العرب الجاهليين كانوا نهاية الكرم ، وتذكر لنا اخبار حاتم الطائي وقصصه العديدة ، ومن اشهرها قصته اذ نحر فرسه النفيس ليطعم به رسول قيصر الروم ، وكان القيصر قد ارسل رسوله ليمتحن ما بلغه عن كرم حاتم بان يسأله ان يهب له ذلك الفرس ، فالصورة الشائعة تريد منا ان نصدق انهم كانوا جميعا على هذه الدرجة من السخاء . ولا ينتبه المستشهدون بهذه القصة ـ التي لا شك لدينا في انها مخترعة ـ الى انها لم تشتهر الا لانها على اي حال ترسم مثلا اعلى نادر الوجود اثار عجب العرب انفسهم. كذلك لا ينتبهون الى ان هذه الاشعار الكثيرة التي يستدلون بها على قضيتهم لها دلالتها العكسية لو انعموا النظر فيها ، والا لم يكن داع الى تفاخر الشعراء بكرمهم لو كان الجميع كرماء .

ومن الناحية الاخرى نجد لاستاذنا الكبير الدكتور طه حسين فصلا طريفا في كتابه « في الادب الجاهلي » يكذب به هذه الصورة الشائعة فيتطرف في النقيض . اذ يطيل الحديث عن بخل العرب وحرصهم على المال ، ويستمد صورته من القرآن الكريم وتصويره لبخلهم وحرصهم وحبهم للمال وغرامهم بالربا . ثم يستعمل هذا التناقض بين الصورة التي يرسمها القرآن والصورة التي يعتقد ان الشعر الجاهلي يرسمها لكرمهم حجة من حججه فـ يرفض صحة هذا الشعر واثبات نحله .

والطريف في هذا ان استاذنا الكبير في جهاده لهدم الصورة الشائعة عن كرم العرب لا ينتبه الى انه قد وقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه من يرسمونها ، فاخطأ الدلالة الصحيحة التي يدلها الشعر الجاهلي ، وظنها مناقضة للصورة التي يرسمها القرآن ، والحق ان لا تناقض ، فالشعر الجاهلي لا يرسم للعرب الجاهليين صورة الكرم التام الا اذا اخطأنا الاستنباط وغفلنا عن دلالة الكلام ، والا اذا كانت معرفتنا بالشعر الجاهلي معرفة محدودة . وهذا الخطأ لا يقوم حجة على الشعر الجاهلي نفسه .

فاذا تركنا كل هذا التجادل بين الفريقين المتطرفين والتمسنا الحقيقة التاريخية الهادئة التي تشهد بها اخبار الجاهليين واشعارهم، وجدناها ذات شقين : اولهما ان العرب كسائر الاجناس البشرية كان فيهم الكرماء والبخلاء ، فهم لم يتفردوا بين البشر جميعا بطبيعة تعلو على الطبيعة الادمية . وثانيهما انهم مع هذا قد توفرت لهم اسباب مادية واجتماعية جعلت الكرم مثلا رفيعا من اعلى مثلهم ومن اكبرها حثا لهم على محاولة تحقيقه والاقتراب منه ، ولكن حدث معظمهم عن بلوغه حدود

(*) راجع العدد الماضي من الاداب .

عديدة . فلنحاول الآن ان نثبت كلا شطري الحقيقة ، وأن نتبين طبيعة هذه الحدود .

نجد في حماسة ابي تمام اشعارا لبخلاء يعتذرون عن بخلهم ، واشعارا يحوف اصحابها من الفقر ويذمونه ويبررون سعيهم الى الغنى وحرصهم على المال . واشعارا تذم البخلاء . اضف الى هذا كله ان كل افتخار بالكرم يثبت البخل في اخرين ، كما شرحنا طريقة الاستدلال الصحيح . هذا كله حق ، ولكن الفهم التاريخي الصائب ، دعك من العدل ، يقنعنا بأن الكرم كان يحتل في قائمة الفضائل عندهم مكانا يفوق مكانه لدى امم اخرى كثيرة ، وانهم قد اجلوه اجلالا عميقا . وبلغ من تقديرهم له انهم بالرغم من تقديسهم الذي شرحناه للنسب الرفيع، اعتقدوا ان البخل يزري بهذا النسب ، ولعله الخلة الوحيدة التي اعتقدوا انها تهدف النسب . بل تأمل في تسميتهم السخاء بالكرم ، والكرم في الاصل ليس السخاء بالمال ، بل هو عتق السلالة ورفعة النسب ، تجدها دليلا على قرنهم بين الوصفين ، واعتقادهم بضرورة تلازمهما ، فكريه الاصل لا بد ان يكون كريم الفعل اي سخيا . وعلى هذا الضوء تستطيع ان تجيد فهم هذه الابيات التي قالها السموأل :

صفونا فلم نكدر واخلص سرنا ... اناث اطابت حملنا وفحول
علونا الى خير الظهور وحطنا ... لوقت الى خير البطون نزول
فنحن كماء المزن ما في نصابنا ... كهام ولا فينا يعد بخيل

انظر كيف انساق الشاعر ، وهو في معرض الحديث عن شرف سلالهم ورفعة نسبهم ، انسياقا طبيعيا الى نفي البخل عنهم ، فكيف يكون منهم البخيل ونسبهم على هذا الصفاء والزكاء ؟

ومن هذا ايضا نستنبط حقيقة اخرى هامة : ان الكرم كواجب مفروض كان يلزم اشرافهم وحدهم ، اما للآخرين فهو مثل عال يجلونه ويسعون جهدهم اليه لكنهم لا يلامون اذا قصروا في بلوغه . فذوو النسب الشريف يحتاجون الى ممارسته ليحفظوا احسابهم التي تعزز انسابهم،وغيرهم يقلدونهم وفق المثل المشهور : الناس على دين ملوكهم. وهذا بدوره يدفعنا الى ان ننظر نظرة موضوعية في حقيقة الكرم الجاهلي الذي تمدحوا به قبل الاسلام ، حتى نرى اختلافه الجسيم عن نوع الكرم الذي جاء الاسلام يعلمهم اياه ويحضهم عليه .

فالحق ان السبب الاساسي في ايجاد ذلك الكرم الجاهلي واحلاله منزلته العالية في قائمة فضائلهم الاجتماعية كان سببا اقتصاديا. فتلك الحياة البدوية المتنقلة كانت مهددة دائما في اساس رزقها ، وهو ماء المطر الذي قد ينقطع سنة او سنين متعاقبة عن اراضي القبيلة . فما من قوم اغنياء الا وهم عرضة لان يصيروا فقراء في اشد الحاجة اذا اصابتهم السنة اي القحط . والذين يقوم معظم ثرائهم على ارشاد القوافل وضمان سلامتها لا يأمنون ان تتحول طرقها عن اراضيهم ،وهي قد تحولت مرارا عديدة في تاريخ ما قبل الاسلام .

اهتدى الجاهليون الى « الكرم » كوسيلة للاحتياط من هذا التقلب ، وتخفيف اسوأ عواقبه ، فهو نوع من ضمان المستقبل ، او سمه « التأمين الاجتماعي » ان شئت . فالمال كما يقول شاعرهم غاد ورائح ، ولا يبقى منه الا الاحاديث والذكر ، فان اشتهر عنك انك كنت كريما في زمن غناك ، فهذا اجدر ان يحمل الاخرين على معونتك اذا افتقرت واحتجت . لذلك يقول احد شعراء الحماسة :

ولا تحرم المولى الكريم فانه ... اخوك ولا تدري لعلك سائله

ويقول اخر .

وانك لا تدري اذا جاء سائل ... أأنت بما تعطيه ام هو اسعد
عسى سائل ذو حاجة ان منعته ... من اليوم سؤلا ان يكون له غد

الحقيقة اذن هي ان كرم العرب قبل الاسلام كان منظورا في معظمه الى الفائدة المادية التي تعود على صاحبه ، او « الاستكثار » كما سماه القرآن الكريم في نهيه الرسول عليه السلام عن هذا النوع من الاحسان. لا نريد بهذا ان نطعن في فضله او ننكر فائدته الاجتماعية الجليلة،فنحن ممن يسلمون باهمية العوامل الاقتصادية في تحديد مقاييس الفضيلة التي تشيع في مجتمع معين ، لكن نريد ان نتبين منزلته الحقيقية بين الفضائل ، لنرى انه كان فضيلة او « قيمة » اجتماعية ولم يكن فضيلة نفسية ، نعني انه لم يكن ذلك النوع الخالص من الكرم القلبي الصادر عن عاطف عميق وتألم وجداني يشعر به المرء نحو المعدمين فيأسى لما يعانون من الضر . ولا كان صادرا عن ضمير اخلاقي يستنكر تفاوت الحظوظ ويسعى الى عدل الميزان المختل بين الموهوبين والمحرومين . اما الذي جاء يعلم العرب هذا النوع السامي من الكرم ، هذا النوع الذي يفعله صاحبه لمجرد حب الخير ، ولا ينتظر عليه جزاء بل لا ينتظر عليه شكورا ، والذي يفعله صاحبه خفية لا مباهاة ولا مراءاة ولا اكتسابا للفخر ودغما للحسب وصيانة للنسب ، يفعله خفية حتى لا تعلم شماله ما اعطت يمينه ـ فذلك هو الاسلام .

لسنا ندعي ان العصر الجاهلي خلا من افراد فهموا هذا النوع العالي من الكرم ، ومنهم ممدوح زهير الذي وصفه ببيته الرائع المشهور :

تراه اذا ما جئته متهللا ... كأنك تعطيه الذي انت سائله

وبيته الاخر الذي يتلوه :

وذي نسب ناء بعيد وصلته ... بمال وما يدري بانك واصله

لكنهم كانوا في ذلك العصر قلة . وليس ادل على قلتهم من ان نتذكر الانبهار العظيم الذي احسوا به امام بيت زهير المذكور ، ونقرأ شرح ديوان زهير لنرى كيف يحاول بعض الشراح ان يفسر البيت تفسيرا يلغيه ، كأنه يستكثر على انسان ان يوصف بهذا الوصف . ثم تعود الى تفاسير القرآن لنقرأ محاولة بعضهم ان يفسروا الاية الكريمة « ولا تمنن تستكثر » تفسيرا يجعل النهي فيها موجها الى الرسول عليه السلام وحده دون امته ، وانه نهي تنزيه لا تحريم ، الامر الذي يدل على انهم وجدوه يعسر على البشر العاديين ان يعملوا به (١) .

فاذا تأملت في البيت الثاني الذي رويناه لزهير ، وجدته يومىء الى حقيقة اخرى ، هي ان معظم كرمهم كان مقصورا على ذوي النسب القريب . وهي سيرة الفرزدق في كتاب الاغاني قصة يصمم فيها ثلاثة من مشهوري الشعراء على ان يمتحنوا ثلاثة من اجواد العرب المشهورين بالجود . فيذهبون الى اولهم يسألونه الهبة ، لكنه يسألهم اولا عن نسبهم . فينصرفون عنه الى الثاني ، فيسألهم ايضا ممن هم. فينصرفون عنه الى ثالثهم ، وهو ابو الفرزدق ، فيعطيهم دون ان يسألهم عن قبائلهم، فيحكمون بانه اكرمهم . لذلك يروون عن ابي الفرزدق ، وهو غالب بن صعصعة ، انه كان لا يبالي ما اعطى ومن اعطى .

وفي ديوان الحماسة اشعار كثيرة في الشكوى من بخل القبيلة على من ليس ذا نسب قريب منها . كقول احدهم :

لعمري لرهط المرء خير بقية ... عليه وان عالوا به كل مركب
من الجانب الاقصى وان كان ذا غنى ... جزيل ولم يخبرك مثل مجرب
اذا كنت في قوم ولم تك منهمو ... فكل ما علفت من خبيث وطيب

بل لهم اشعار يشكون فيها ان اقاربهم او مواليهم جيرانهم لا

---

(١) يميز علماء الاخلاق بين مراتب اخلاقية ثلاث . في ادناها يفعل المرء الخير ويجتنب الشر طلبا للثواب المادي وتحاشيا للعقاب المادي. وفي اوسطها يكون دافعه رغبة ثناء الناس وحمدهم وحذر ذمهم وتشهيرهم . وفي اعلاها يكون دافعه الوحيد حب الخير من اجل الخير وكره الرذيلة في ذاتها وارضاء الضمير دون اهتمام بما يقوله الناس . ولما كان الاسلام دينا موجها للناس جميعا على اختلاف مراتبهم، وجدنا القرآن يستعمل هذه الدوافع الثلاثة في مخاطبة البشر . لكنه لا شك يرسم لهم المثل الاعلى الذي يحضهم على الاقتراب منه جهدهم، وهو الذي يفعلون فيه الخير من اجل الخير نفسه ، ابتغاء مرضاة الله وحده ، فلا يفسدون عملهم بالمن ، ولا يبتغون من المحسن اليهم جزاء ولا شكورا . وهو ما اجاز لهم ابداء الصدقات ، ووعدهم بالمثوبة ان ابدوها ، قد لفت نظرهم الى سلوك ارفع بكثير ، هو أن يخفوا صدقاتهم ، فاخفاؤها خير لهم .

يعطفون عليهم . منها :

اذا المرء لم يسرح سواما ولم يرح ... سواما ولم تعطف عليه اقاربه
فالموت خير للفتى من فعوده ... عديما ومن مولى تدب عقاربه

وقول الاخر :

اذا كنت في سعد ـ وامك منهمو ... ـ غريبا فلا يغررك خالك من سعد
فان ابن اخت القوم مصفى اناؤه ... اذا لم يزاحم خاله بأب جلد

وقوله « مصفى اناؤه » اي ممال اناؤه ، ومعناه ينقص حظه ، لان الاناء اذا اميل نقص ما يسعه. ومعنى الشطر الاخير اذا لم يكن اعمامه اقوى من اخواله . ومن هذا نعرف انهم لم يبخلوا على ذوي النسب البعيد فحسب ، بل بخلوا على اولاد الاخت . واليك شاعرا اخر يشكو اساءة الجيرة ويصوغ شكواه في نهكم وسخرية لاذعة ، ويندم على تركه لقومه :

فنعم الحي كلب غير انا ... رأينا في جوارهمو هنات
ونعم الحي كلب غير انا ... رزئنا من بنين ومن بنات
فان الغدر قد امسى واضحى ... مقيما بين خبت الى المسات
تركنا قومنا من حرب عام ... الا يا قوم للامر الشنات
واخرجنا الايامى من حصون ... بها دار الاقامة والثبات
فان نرجع الى الجبلين يوما ... نصالح قومنا حتى الممات

فنرى ان بخل هؤلاء قد بلغ في نظر الشاعر درجة الغدر .

ولكن لن نمضي في الاستشهاد بالاشعار الكثيرة التي تدل على ان كرم الجاهليين كان محدودا بحدود . ويكفي ان ترجع الى باب الاضياف والمديح من ديوان الحماسة لترى ان الشعراء لا يكادون يفخرون بانهم كرام حتى يرموا اخرين بانهم بخلاء . اما ما يحتويه باب الصفات من مقطوعات لشعراء يصرحون بانهم يكرهون الضيف ويجتهدون في طرده فلن نستشهد بها، لانها ربما تكون قد قيلت من باب التظرف .

***

فاذا عدت الان الى بيت الحادرة نفسه ، وجدته يصرح بالدافع الذي يدفع قومه الى بذل آمن مالهم ، وهو وفائهم لاحسابهم . واذا عدت الان الى الشعر الكثير الذي يفخرون فيه بكرمهم وجدت هذا التعليل صريحا او متضمنا في اكثره ، خصوصا حين يصوغ الشاعر فخره في صيغة حوار شائق بينه وبين زوجته التي تلومه على اسرافه في كرمه . حتى ليخيل الينا ان احدهم ما يكاد يكرم عليك اليوم الا ليفخر غدا بعمله هذا في قصيدة مدوية نسير بها الركبان .

لكن دعنا الان ننتقل مع الحادرة من فخره بكرم قومه في شطره الاول من البيت ، الى فخره ببلائهم في الحروب في شطره الثاني ، وذلك حين يقول « ونجر في الهيجا الرماح وندعي » . اما اجرار الرمح فهو ان يطعن الرجل الرجل ثم يترك الرمح فيه ولا ينزعه من جسده. ويقال اجر فلانا طعنه وترك الرمح فيه يجره . ويقول الشرح القديم انه يفعل ذلك ليكون ذلك اعنت للمطعون اي اكثر ايلاما له . ولا شك ان ترك الرمح في الجسم يسبب ايلاما افظع واطول زمنا مما لو انتزع منه (كما تفعل الرصاصة اذا بقيت في جسم المصاب ، لذلك يعمل الجراحون على استخراجها باسرع ما يمكن).والجاهليون كانوا شديدي القسوة في حروبهم ، وكانوا يفخرون بقسوتهم هذه ، وهذا هو الحادرة الذي رأينا مبلغ رفته في نسيبه ، نرى الان مبلغ قسوته ولذته بايلام الاعداء حين انتقل الى فخره القبلي . فقد كانت شجاعة الجاهليين ممزوجة بقدر كبير من الغلظة ونعمد القسوة والتمثيل بالجثث وصفات اخرى لا نسميها الا وحشية . حتى جاء الاسلام فسعى هنا ايضا في ان يهذبهم ويزكيهم من هذه الخصال البدائية . نحن اذن نوافق على ان قوله « نجر الرماح » تصوير منه لمبلغ نكايتهم بالاعداء ، لكن يخيل الينا ايضا ان فيه فخرا اخر ، هو الفخر بفنى قومه ، حتى ليستغنون عن الرمح ولا يسعون الى استخلاصه ، فيتركونه في جسد عدوهم يجره الى دياره اعلانا عن فعلتهم .

واما قوله « وندعي » فهو ان يطعن الرجل خصمه ويقول خذها وانا ابن فلان او وانا الفلاني . فهو يدعي الى قومه اي ينتسب اليهم ليعرف كما يقول الشرح القديم . لكن هنا ايضا لا نفهم الفخر الكامل الا اذا ادركنا ان العكس كان يحدث كثيرا ، وهو القتل غيلة . فما اكثر ما كان الرجل يمضي الى خصمه او خصم قبيلته متخفيا فيقتله ثم يسرع بالهرب ، حتى لا تقع عليه ولا على قبيلته جريرة القتل ، خصوصا حين يوجد بين القتيلين حلف او ولاء . وعد الى ايام العرب وتأمل احداثها واسبابها لترى مصداق ما ندعي . وقد روا القتل غيلة في كثير من اشعارهم . فالحادرة يفخر بانهم ليسوا ممن يقتلون اعداءهم مخالسة ثم ينكرون ما فعلوا تخلصا من العقاب او الثأر . بل يفعلون فعلهم معلنين عن انفسهم ومتحملين جميع العواقب .

ونخوض غمرة كل يوم كريهة ... ترى النفوس وغنمها للاشجع

هنا يصف جسارة قومه وجلدهم على الوقائع الشديدة التي يهلك الناس ولا ينتصر فيها الا ذو الشجاعة القصوى . والغمرة والغمر في الاصل الماء الكثير والبحر العظيم . ووجه الاستعارة ناشيء من خوف البدو للبحر وركوبه ، لقلة الفتهم به وعدم خبرتهم بملاحته . ولهذا اتخذوه مدارا لكثير من تشبيهاتهم واستعاراتهم للشدائد والمخاطر وللرجال ذوي المهابة ، واستعمله القرآن في ايات عديدة لتصوير الرهبة القوية ورحمة الله بعباده اذ ينجيهم من هول البحر الى امان البر . ويقول الشرح القديم « ترديّ الناس اي تهلكهم ولا يظفر فيها الا الشجاع . » وبهذا يفسد على الشاعر ما قاله . فالشاعر يستعمل افعل التفضيل « الاشجع » ويعنيه ، لانه يريد ان هذه الشدائد لا يغنم فيها الشجاع ذو القدر العادي من الشجاعة ، بل من بلغت شجاعته الغاية القصوى . وسبب هذا ان الشجاعة كانت صفة سائدة فيهم . لا نريد بهذا ان ننكر انهم كان منهم الجبناء ، فهجاؤهم الكثير للجبن والجبناء ، وذمهم لمن يهربون من المعارك او يتجنبونها مفضلين الحياة مع الذل على الموت الكريم ، تدل على وجود الجبناء بينهم . لكننا يقودنا التحقيق الهادىء الى ان نقرر ان الشجاعة لا الجبن كانت الصفة الغالبة على رجالهم . ليس هذا لانهم خصوا بقدر زائد من الشجاعة بفضل تكوينهم العنصري ، فاننا لسنا ممن يعتقدون ان الامم تمايز في اخلاقها بتركيبها العنصري او نقائها السلالي ، بل لان طبيعة حياتهم القبلية بتصارعها الدائم وخطرها الماثل في صحرائهم القاسية قد ربت فيهم خلال الصبر والجلد والشجاعة الى درجة لا توجد عادة بين الحضر الذين لا يتعرضون في حياتهم اليومية الى مثل هذه المخاطر. كما ادعى ابن خلدون فكان محقا في فصله المشهور « في ان اهل البدو اقرب الى الشجاعة من اهل الحضر . » لذلك يحتاج احدهم الى قدر زائد من الشجاعة حتى يكون لفخره مبرر .

ونقيم في دار الحفاظ بيوتنا ... زمنا ويظعن غيرنا للامرع

قال الاصمعي في شرح هذا البيت : « دار الحفاظ التي لا يقيم فيها الا من حافظ على حسبه وصبر على ما لا يصبر عليه ، وذلك انه لا يحافظ على حسبه الا الشريف . » وهو يعني بالشريف ذا النسب الرفيع . وهكذا نرى مرة اخرى تمييزهم بين النسب والحسب ، ثم ادعاءهم ان الحسب لا يكون لمن لا نسب له ، وان يكن ذو النسب محتاجا الى جهد دائم ليحافظ على حسبه . ولكن ماذا يعني بقوله « صبر على ما لا يصبر عليه » ؟ يقول الشراح انه يعني الجدب الذي يصيب ديارهم في بعض الاحيان . مرة اخرى لا نفهم وجه الفخر الا بمقارنته بما يدل عليه من وجود العكس بينهم . وهو ان كثيرا من قبائلهم ان لم يكن اكثرهم لم تكن ترتبط باوطانها بعاطفة قوية ، ولم يكن يشدها اليها الا درجة خصوبتها ، فان اجدبت رحلت عنها باحثة عن الامرع ، وهو المكان الاكثر خصبا ان قرأت الكلمة بفتح الراء ، اما ان قرأتها بضم الراء فهي الامكنة الخصيبة جمع مرع .

فالحادرة يفخر بانه حين يفعل الاخرون هذا (وهو تسجيل منه لكون هذا هو القاعدة العامة) يظل قومه مستمسكين بديارهم على اجدابها . فالشاعر يفخر بصفة قليلة الوجود فيهم ويتخذها دليلا على

ـ التتمة على الصفحة ٥٤ ـ

القيم الاجتماعية قبل الاسلام

ـ تتمه المنشور على الصفحة ١٦ ـ

شرفهم الزائد وما يستتبعه من حفاظ شديد على حسبهم ، حتى انهم ليفضلون اعزاز الوطن والتمسك به على ان يهجروه الى مرعى اخصب. وبفخره هذا يدلنا على ان القبائل الرفيعة عندهم بدأت تعرف الصلة بارض الوطن واعزازها على الرغم مما يصيبها في اوقات الضنك .

لكن فخره هذا يكون لا معنى له ، او يكون مجرد حماقة منهم ، لو كانت دارهم ستظل مجدبة الى الابد ، وكانوا سيظلون مقيمين فيها على اجدابها الى الابد ، فان هذا يكون منهم انتحارا . اذن لا بد ان تكون للمعنى بقية يفهمها السامع ، وهي انهم انما يبقون فيها في وقت جدبها لانهم يأملون وينتظرون ان تعود الى سابق خصبها مرة اخرى ، بعودة الامطار اليها. ففخره اذن هو انهم لا يسرع اليهم الخوف والجزع حين يصيبهم سنة ، فيسرعون الى هجران الدار بحثا عن مكان مخصب، بل هم يصبرون فيها ويتجلدون على شدائدها الى ان تتغير الاحوال مرة اخرى . والشرح القديم يستشهد بثلاثة ابيات اخرى في هذا المجال ، ومنها نستنبط علة اخرى لبقائهم في دارهم وان اجدبت،وهي ان يشتهر عنهم انهم ذوو حفاظ عليها ، وانهم ليسوا ممن يتركونها بسهولة ، فلا يطمع فيها طامع حين يتنهي الجدب ويحل بهـا المطر والخصب . وهذا يجيز لنا ان نضيف معنى اخر لقوله ((دار الحفاظ)) ازيد مما قاله الشراح القدماء . فحفاظهم عليها لا يعني صبرهم على جدبها حين تجدب فحسب ، بل يعني ايضا صبرهم على قتال الطامعين فيها المهاجمين لها حين تكون مخصبة ، الى ان يشتهر عنهم ذلك فلا يعود احد يطمع فيها ، وهو معنى سيزيده الحادرة ايضاحا في بيت قادم له .

ولكن لاحظ بعد هذا كله ان الحادرة لا يفخر بانهم يقيمون فيدارهم الى الابد ، بل يقول ((زمنا)) ، وهو يعني بالطبع زمنا طويلا ، لكن حتى قبيلته لم تعرف بعد الارتباط الدائم بمكان واحد لا يتغير ، فقد كان هذا مستحيلا على معظم قبائلهم في البادية . ونحن نعرف من اخبار التاريخ التنقل الدائم الذي كان يحدث في اماكن القبائل ومدارات هجراتها ، وقد كان هذا من اهم الاسباب في وقوع وقائعهم المشهورة بايام العرب . لكن نعود فنقول ان بعض القبائل ، ومنها فيما يبدو ثعلبة بن سعد بن ذبيان ، قبيلة الحادرة ، كانت قد بدأت تطيل الاقامة في بعض الديار حتى تشتهر بها . فالبيت يسجل مرحلة تاريخية متوسطة بين البادية المستمرة الترحل والحاضرة الثابتة الاقامة .

بعد هذا يأتي بيتان متقاربا المعنى ، يضطرب القدماء في روايتهما، واولهما من رواية ابن الاعرابي وحده ، والشطر الاول من كليهما يكرر نفس التعبير ((لا يسرح اهله)) . فلسنا ندري اهكذا نظمهما الشاعر وقصدهما معا بالتكرار فيهما مقصود لتأكيد المعنى ، ام احدهما تنقيح قام به الشاعر نفسه ملفيا به الاخر ولكن الرواة احتفظوا بكليهما ، ام هذا التكرار من مجرد اختلال الرواية . وكل هذه الفروض الثلاثة جائز وكلها له نظائر في روايات الشعر الجاهلي . لكننا سندرسهما كما وردا وان كنا نرجح الفرض الثاني ، تاركين للقارىء ان يرجح ما تقرره كوحدة متضامنة ، ولا ينتهزون الفرصة ليسبقوا غيرهم الى احتلال مكان اخر خصيب .

فلنتذكر مرة اخرى انه لا وجه للفخر ان لم يكن ما ينفيه عن حيه يحدث من اخرين . ولا غربة في هذا اذا تذكرنا الفقر العظيم الذي يسود الصحراء فيثير في كثيرين خصال الطمع والمبادرة الى اقتناص المنافع مهملين واجباتهم نحو اقاربهم . فان يبد لنا هذا مخالفا للصورة الشائعة عن القبيلة وشدة ترابطها ، فان ما نقوله وما ذكره الشرح القديم وما اشار اليه الشاعر نفسه ضمنا تشهد به حوادث كثيرة نجدها في اخبارهم القديمة ، وتجدها ايضا في اخبار ايامهم اي وقائعهم الحربية المشهورة ، وتجد صداها في نقائض الاخطل والفرزدق وجرير. فقد كانت بعض احياء القبيلة الواحدة تهجر سائر الاحياء لا في وقت الجدب فحسب ، بل في وقت هجوم العدو ، تاركة لسائر الاحياء ان تلقى هذا الهجوم وحدها ، غير عابئة بما ستكسب بهذا من العار فيما بعد .

اما قوله ((ومحل مجد)) فهل يعني به المعنى الاصلي او المعنى المجازي للمجد ؟ اما المعنى المجازي فكلنا يعرفه وهو الان الاستعمال الوحيد الذي نستعمل فيه كلمة المجد . واما المعنى الاصلي الحسي فمن قولهم مجدت الابل وقعت في مرعى كثير ، ونالت من النبات الرطب قريبا من الشبع . ومجدها الراعي اشبعها او علفها ملء بطنها او نصف بطنها . فالمجد كما ترى يدل على الشبع او ما يقاربه . فان قلت انه قد يدل ايضا على نصف الشبع ذكرناك بان هذا ايضا خير وبركة للبدو في صحرائهم ذات العوز الشديد ، فهم قل ان يأملوا في الشبع الكامل ، فاذا اصابوا نصفه قنعوا به وسروا . تزداد ادراكا لهذه الحقيقة اذا عرفت نظام ورودهم للماء ، فما قلناه عن الطعام ينطبق ايضا على الشراب . فهم قل ان استطاعوا ان يردوا الماء بابلهم كل يوم، واكثر ما يطمعون فيه عادة ان يردوه يوما ويظمأوا يوما . وقد يردونه يوما ويظمأون يومين ، او ثلاثة ، او اربعة . ولكل من هذه الانظمة ـ او الاظماء ، جمع ظمء ـ اصطلاح لغوي خاص .

ومن هذا المعنى الحسي للمجد جاء المعنى المجازي للمجد بمعنى الشرف او الكرم او كرم الاباء خاصة ، لان القبائل العزيزة النسب هي التي تفوز عادة بتلك المراعي الخصيبة التي تعطي ابلها الشبع او ما يقاربه . كما ان كثيرا من الفاظ العربية ان لم يكن اكثرها لها اصل حسي وان دلت على معان تجريدية (والشرف نفسه اصله المكان المرتفع من الارض) .

والذي نراه هو ان الحادرة قصد الى مزيج من المعنيين الحسي والمجازي . فهو يقول انهم لا يهجرون هذا المكان وان اجدب ، لانه اول ما نزلوا به لم يكن مجدبا بل كان خصيبا يعطيهم الشبع او قريبا منه ، فالان اذ حل به الجدب يؤثرون ان يظلوا به مخلصين له متمسكين به، آملين ان يعود المطر فيغيثه بعد ان ضن عليه ، لانه ارتبط في اذهانهم بمعنى الشرف والكرم فصار مكانا عزيزا على نفوسهم، خصوصا لان بعض احيائهم تقرر البقاء به الى حين فلا يخونهم قوم الشاعر ولا يهجرونهم. فان صح رأينا في ان ((المجد)) في هذا البيت مزيج من المعنيين الحسي والمجازي ، كان هذا البيت شاهدا طريفا على اختلاط المدلولين في ذهن الشاعر القديم . وكان هذا يحدث في زمان شباب اللغة قبل ان تتحول المجازات الى اكليشيهات محفوظة تنفصل لدى مستعمليها عن اصولها الحسية . ونظيره لا يزال يحدث للاطفال حين يبدأون في الانتقال من الفهم الحسي الى الفهم المجازي للتعبيرات اللغوية . ومن هذا نستنبط درسا هاما ، هو اننا في قراءتنا للشعب القديم ، وللنثر القديم ايضا ، يجب علينا دائما ان نتذكر المعنى الاصلي الحسي للكلمة او التعبير ، وان نتمثله تمثلا حاضرا في مخيلتنا ، والا اضعنا على انفسنا كثيرا من عناصر الحيوية والجمال في الادب القديم .

بسبيل ثغر لا يسرح اهله سقم يشار لقاءه بالاصبع

هذا هو البيت الاخير في فخره بقومه . فان صح ترجيحنا انه صياغة جديدة يحلها الشاعر محل بيته السابق ((ومحل مجد)) ، كانت الباء في قوله ((بسبيل ثغر)) متعلقة بقوله ((نقيم بيوتنا)) في البيت الاسبق . ونستطيع في ضوء شرحنا الماضي ان نفهم هذا البيت الجديد الذي اضطرب الشراح القدماء في فهمه ، فقالوا ((لا يسرح اهله اي لا

يسرحون مالهم من خوف العدو . » وقالوا اشياء اخرى لا نقل خطأ . والحقيقة هي ان هذا البيت يعطي النتيجة التي ننتج مما ذكره الشاعر من قبل من اصرارهم على الحفاظ على ديارهم وان اجدبت احيانا . اذ يشتهر عنهم انهم قوم يحافظون على وطنهم ولا يتخلون عنه بسهولة، فترهبه القبائل الاخرى ولا تطمع في غزوه حين يعود اليه الخصب . بل هي تتحاشاه اذا مرت به في اسفارها ولا تقترب منه بل تشير اليه باصبعها في خوف شديد .

وتعبيره « يشار لقاءه بالاصبع » تعبير جميل في تصويره للفزع والتحاشي بهذه الحركة الحسية . نكاد نرى رجال القبائل الاخرى يمرون بالمكان عن بعد فيرتعدون خوفا ويمدون ايديهم المرتعشة يشيرون اليه ويقولون « هذه دار بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان فاحذروها ولا تقربوها ! » اما وصفه للمكان بأنه « سقم » فوصف غاية في الدقة والجمال . فقوله « سقم » معناه مخوف يخشاه الناس . وهنا يقول الاستاذان اللذان لخصا الشرح القديم وطبعاه طبعة حديثة ان هذا المعنى لكلمة « سقم » لا يوجد في المعاجم . وهو حقا لا يوجد في المعاجم ، ولكنه تعبير شخصي مبتكر من هذا الشاعر ، ومن واجبنا ان نفكر ماذا عنى الشاعر بتعبيره المبتكر هذا ؟ هو يصور به ما يشعر به الخائف في احشائه من السقم والغثيان ، وهذا شعور نعرفه جميعا اذا تذكرنا تجربة احسسنا فيها بالخوف الشديد فشعرنا باثره في احشائنا. ومن الطريف ان هذا التعبير الذي استعمله هذا الشاعر العربي الجاهلي يذكرنا بالتعبير الانجليزي الذي يساويه تماما sickening fear أي خوف يؤدي الى المرض والغثيان . وهذا مثل طريف على تشابه التعبيرات الانسانية الناشئة عن تشابه الانفعالات الانسانية على الرغم من الاختلاف السحيق في الجنس والبيئة والزمان .

واما وصفه المكان الذي يقيمون فيه بأنه « ثغر » فيعني به فخرا زائدا . فالثغر هو المكان المفتوح ، ومنه سمي الفم ثغرا لانه فتحة في الوجه . والمكان المفتوح هو المكان غير المحصن تحصينا طبيعيا ، فهو عرضة لهجمات الاعداء لانهم يستسهلون غزوه . ومن هذا سميت حدود الوطن القريبة من اراضي الاجانب ثغورا لانها عرضة لغزوهم(واستعمالنا الان للثغر بمعنى المرفأ البحري فقط هو استعمال ناقص لا يعطي كل المدلول الاصلي للكلمة) . ووجه هذا الفخر هو انهم يقيمون بهذا المكان لان لديهم في عددهم وقوتهم وبأسهم وشجاعتهم ما يفي بحمايته دون حاجة منهم الى جبال عالية تحيط به او اراض وعرة تصونه من هجوم الاعداء . فهذه الكلمة الواحدة « ثغر » فيها كما ترى زهو قوي وادلال كبير من الشاعر ببأس قومه . ولم تكن القبيلة تجرؤ على الاقامة بمثل هذا المكان الا اذا كانت واثقة من نفسها حقا ، اما اغلب القبائل فكانت تبذل جهدها في ان تتخير لاقامتها مكانا له بعض التحصين الطبيعي . وبهذا نفهم القوة الكاملة للفخر في سائر البيت ، فبرغم ان هذا المكان ثغر مفتوح غير حصين ، يخشاه الاخرون كل هذه الخشية التي صورها الشاعر ، لمجرد اقامة قبيلته به .

***

بهذا يتم الحادرة فخره القبلي ، وقد رأى القارىء المنهج التاريخي الاجتماعي الذي اصطنعناه في دراسة فخره هذا ، وكيف حاولنا ان نستقري من هذا الفخر ، مضافا اليه ما قاله الشعراء الاخرون في الجاهلية وصدر الاسلام ، عددا من اهم القيم الاجتماعية التي سادت الحياة الجاهلية .

كما رأى القارىء كيف استخدمنا منهجنا هذا في تحقيق حياة الجاهليين بين المثل من ناحية ، وواقع الحال من ناحية اخرى ، وكيف قادنا هذا المنهج الى تعديل طائفة من الاراء الذائعة والمسلمات المقررة، تلك الاراء والمسلمات التي يلوكها ويرددها كثير من الكتاب ومؤلفي الكتب المدرسية في تاريخ الادب ، ويتناقلونها واحدا بعد الاخر، دون ان يعنوا بتمحيصها والتثبت من مدى موافقتها للحقيقة .

ونحن لا ندري هل اقتنع القارىء بكل ما بسطناه او بعضه ، ولا نأمن ان يكون في ارائنا التي عرضناها نصيب من الخطأ كبير او صغير وجل من لا يخطىء ولا يسهو . ولكن الحقيقة الواحدة التي لا نشك فيها ، والتي نعتقد ان بحثنا هذا قد جلاها ، هي حاجتنا الشديدة الى ان نعيد النظر في جميع الاحكام الرائجة في تاريخنا الادبي ، وان نخضعها لمنهج في البحث اكبر دقة . وبهذا نحقق هدفين ربما يبدوان متناقضين ، لكنهما في الحقيقة متكاملان لا يقوم احدهما بدون الاخر . اولهما التحقيق الموضوعي النزيه المجرد من الهوى والتعصب والحلم الرومانسي بالماضي ، وثانيهما انصاف الجاهليين في حدودهم الزمانية والمكانية التي حددت اوضاعهم المعاشية فحددت امكانياتهم الفكرية والاخلاقية .

اما ان نمضي في تقديس الجاهليين والنظر اليهم من خلال منظار وردي لا يرى فيهم الا جماعا للفضائل كما يفعل البعض ، او في تحقيرهم وتقبيح جميع احوالهم وعاداتهم والنظر اليهم من خلال منظار اسود لا يرى فيهم الا كتلة من الرذائل كما يفعل البعض الاخر ، فسنظل في كلا الحالين عاجزين عن معرفتهم معرفة موضوعية صحيحة ، وعاجزين عن التعاطف الصحيح معهم ، والتعاطف الصحيح لا يقوم على الجهل بالحقائق او تجاهلها واعماء البصر عنها ، بل يقوم على فهمها وادراكها ادراكا عاقلا حكيما يربطها باوضاع بيئتها وظروف زمانها .

ومهما يكن من قيمة دراستنا هذه في ذاتها ، فنحن نرجو ان يكون فيها حافز يحفز باحثينا ونقادنا على تجديد نظرتهم الى تاريخنا الادبي واعادة تقويمه ، ولعل فيما بسطناه هنا ما يصلح اساسا لنقاش جاد خصيب يتناوله من يعقبنا من الباحثين والنقد بالتصحيح والاكمال حتى يقود الى معرفة اوفى وفهم اعمق للعرب القدماء . فان الحقيقة المحزنة هي ان تاريخنا الادبي لا يزال غاصا بالاخطاء والاوهام والاكاذيب وانصاف الحقائق ، لا عجب ان نجده لا يصلح البتة كاساس نقيم عليه نهضتنا الجديدة التي نحاول فيها ان نحقق قوميتنا العربية بمفاهيمها العلمية الجديدة .

القاهرة — محمد النويهي

شعر
من منشورات دار الاداب

		ق. ل
● الاعاصير	للشاعر القروي	٣٥٠
● وجدتها	لفدوى طوقان	٣٠٠
● وحدي مع الايام	» »	٣٠٠
● اعطنا حبا	» »	٢٥٠
● مدينة بلا قلب	لاحمد ع. حجازي	٢٠٠
● عيناك مهرجان	لشفيق المعلوف	٢٠٠
● ابيات ريفية	لعبد الباسط الصوفي	٣٠٠
● في شمسي دوار	لفواز عيد	٢٠٠
● الفجر آت يا عراق	لهلال ناجي	٢٠٠
● المشانق والسلام	لعدنان الراوي	٢٠٠
● حداء وغناء	لخالد الشواف	٢٠٠
● عاشق من افريقيا	لمحمد الفيتوري	٢٠٠
● احلام الفارس القديم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
● اقول لكم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
● فلسطين في القلب	لمعين بسيسو	٢٠٠
● كلمات فلسطينية	لحسن النجمي	٢٠٠
● بيادر الجوع	للدكتور خليل حاوي	٣٠٠
● سفر الفقر والثورة	لعبد الوهاب البياتي	٢٥٠
● الناس في بلادي (ط. جديدة)	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠